العراق
في جدل الديمقراطية والتقدم العربي

تناول العديد من المثقفين العرب موضوعة جدل الديمقراطية والتقدم في الأقطار العربية من خلال تحليل سياسات الايديولوجيات الشمولية التي سيطرت على الفكر العربي خلال النصف الثاني من القرن الماضي، التي ذهب منظّروها جميعاً الى أن الديمقراطية العربية هي منعطف التحولات الكبير للمجتمع العربي، دون أن يقوم اي واحد منهم أو أحزابهم التي يمثلونها بتقديم المنهجية الفكرية السليمة لإخراج الديمقراطية من إطارها الاسطوري لكي يصاغ على اساسها مشروع النهضة المنشودة لتقدم مجتمعات الأقطار العربية

ابراهيم الداقوقي

وقد شعر عدد من الباحثين العرب بمسؤوليتهم الاجتماعية والفكرية عن ضرورة تأسيس مشروع للتنظير التأسيسي للمبادئ الديمقراطية اللازمة للمجتمعات العربية وآليات تطبيقها فيها. فكان ميلاد (مشروع دراسات الديمقراطية في البلدان العربية) كمؤسسة وقفية تطوعية رائدة في اكسفورد بلندن في صيف عام (1990).

وتحمل هذه المسؤولية باحثان عربيان معروفان بالرصانة الفكرية هما علي خليفة الكواري ورغيد كاظم الصلح، اللذان جعلا من هذه المؤسسة (ورشة عمل لتعزيز المساعي الديمقراطية في البلاد العربية) ولعقد الندوات منذ صيف عام (1991) (لبحث إشكاليات الحركات والأحزاب في البلدان العربية مع الديمقراطية، وإشكالية الديمقراطية مع بعض متطلبات ممارستها من قبل تلك الأحزاب والحركات) ومن ثم نشر الأوراق والنقاشات في كتاب مستقل ولاسيما بحوث ومناقشات الندوتين السادسة (الحركات الإسلامية والديمقراطية) والسابعة (الديمقراطية والأحزاب في البلدان العربية: المواقف والمخاوف المتبادلة) اللتين تحظيان بأهمية متميزة من حيث عدد وأهمية الباحثين والمتحاورين من جهة والبحوث المتميزة بالصراحة والشجاعة والتحليل الموضوعي، من جهة أخرى.

وكان الباحث الأول والشجاع الذي تناول جدل الديمقراطية والتقدم في الوطن العربي بالنقد الموضوعي، هو الكاتب اليساري السوري جورج طرابيشي في أطروحته (الايديولوجية الثورية واستحالة الديمقراطية) التي قدمها الى ندوة (الديمقراطية والأحزاب في البلدان العربية) عام (1997). أكد فيها الطرابيشي "أن الثورية والديمقراطية فكرتان لا تلتقيان على الاطلاق". ولذلك فإن الطرابيشي- الذي تحدث عن تجربته الذاتية مع التيار الماركسي- رفض أساطير الخلاص للايديولوجيات الشمولية- العربية والاشتراكية والاسلامية- التي "فشلت سياسيا واقتصاديا وثقافيا في كل تجاربها في أنحاء الوطن العربي والتي اغتالت الديمقراطية من خلال ممارسة العنف والتصفية للأعداء والاستئثار بالسلطة مع إقصاء قوى اجتماعية وسياسية عريضة عن الساحة السياسية".

وهو عندما يتحدث عن الايديولوجيات الثورية العربية ويرفض أساطيرها في الخلاص وأحلامها في إجراء التحولات من أجل التقدم والازدهار، للاستئثار بالسلطة مع تصفيتها للآخر بعد اتهامه بالرجعية أو التآمر أو العمالة للاستعمار والصهيونية أو تعاونه مع العسكر المضاد، كأنه بذلك يصور نظام الحكم السالط في العراق، الذي كان تجسيداً لكل هذه المثالب بعد أن قام صدام حسين بتحويل سلطة حزب البعث الحاكم إلى سلطة شخصية (عائلية) وعشائرية مع إقصاء الآخر نتيجة عدم الاعتراف بالوضع الاجتماعي للآخرين في دكتاتورية مقيتة تعتمد على خلق مجموعات منتفعة من خلال صعود طبقات تستخدم القومية العربية، رغم عدم إيمانها بها، لخدمة أهدافها، مما أدى إلى خلق قيم ومفاهيم جديدة في المجتمع العراقي تقوم على النفعية والمصلحية الذاتية والانغلاق ورفض الآخر من غير طبقتها. كما أطلق النظام يد الأبناء والأقارب والخلان والمرتزقة وتلك الطبقة الصاعدة لتعبث بالبلاد ولتنهب وتغتصب وتسجن وتشرّد وتقتل باسم الثورية والعروبة وحماية النظام. أما الاعلامي- المثقف فقد طرد كليا من السياسة وأصبح معظمهم ذيلاً تابعاً أو موظفاً لدى الدولة التي عهدت به إلى البروفيسور - وهو اللقب العلمي الرفيع الذي منحته جامعة بغداد للدكتور عدي صدام حسين- لكي يتصرف به وبمصيره وقوته اليومي، باعتباره- أي عدي- رئيس اتحاد الأدباء ونقيب الصحفيين ورئيس اللجنة الاولمبية ورئيس مؤسسة تلفزيون الشباب ورئيس تحرير صحيفة بابل التي كانت تجلد الوزراء وكبار موظفي الدولة بسوط نقد الاهانة والتحقير والتخلف، فقام بشطب اسم ألف كاتب وشاعر من عضوية اتحاد الأدباء العراقيين دفعة واحدة (لأنهم مرتدون ومنحرفون عن خط الحزب والثورة) وسجن الاعلاميين بعد أن أشبعهم ركلا بالأقدام أو ضربا بالسياط في سراديب اللجنة الاولمبية وغيرها. في حين غاب في تلك السجون المفكر العراقي عزيز السيد جاسم، ومات الجواهري الكبير والبياتي وبلند حيدر كمدا وقهرا في بلاد الغربة، بينما فقد نائب نقيب الصحفيين -أي نائب عدي- ذاكرته نتيجة التعذيب والاهانة في تلك السجون، وهو اليوم طريح الفراش في بيته.

جورج طرابيش

برهان غليون

ولهذا أنهى الطرابيشي أطروحته بالقول: "فكاتب هذه السطور مارس مع كثيرين غيره -من أبناء جيله- اسطورة الخلاص الثورية، ولكنه مصرّ في ختام رحلة العمر هذه، على ألا يمارس اسطورة الخلاص الديمقراطية، لأنها لغة طفلية، بقدر ما هي مثالية في قراءة العالم. والحال أن الواقعية شرط لقراءة راشدة" وذلك لإيمانه بأن مشكلة الخطاب الديمقراطي العربي تتجسد في عدم وجود المؤسسات الدستورية، كما أن المعارضة صورية وغير فعالة، إضافة إلى أن الانتخابات غير حرة ومزيفة. وإن كافة أنظمة الحكم تقصي الآخر ولا تعترف به.

في حين ينبري باحث جريء آخر، في الندوة نفسها، للتصدي لإشكالية الديمقراطية في العالم العربي، هو الناشط العراقي في مجال الديمقراطية والخبير الاقتصادي الدولي الدكتور وليد خدوري، رئيس تحرير نشرة الشرق الأوسط للتحليلات الاقتصادية (MEES) الصادرة في قبرص، ولكن ليس من جانب فشل الديمقراطية لدى الثوريين العرب حسب، وإنما من خلال تفسير سبب ذلك الفشل الذي يعزوه إلى: أن الحركات القومية كانت غير ديمقراطية، في ممارساتها الحزبية الداخلية- البينية، وكذلك في الحكم أثناء تسلم السلطة، نتيجة الانفصال المستمر ما بين الفكر والسياسة في الحركات القومية العربية وغياب الإطار النظري- الواقعي للأمور المحلية والاقليمية في بنية الفكر العربي، إضافة إلى غياب المرونة والصراحة، فعجزت عن بناء نظام اقتصادي ثابت ومستقر وناجح" بينما يعتقد الباحث السوري الدكتور برهان غليون في تعليقه على أطروحة خدوري "أن الحركات القومية كانت غير ديمقراطية، لأن الممارسة التاريخية والسياسية دفعتها لأن تكون كذلك. والمقصود بظروف الممارسة أولويات العمل الوطني، ولذلك فإنها عجزت عن بناء دولة المؤسسات والنظام الاقتصادي الثابت والناجح، فقد بقيت السلطة التي ظهرت لقيادة تلك الحركات تحت قيادة سلطة شخصية". غير أن الدكتور علي خليفة الكواري يرى بأن مشروعه يسعى لبلورة مدلول للديمقراطية وليس تعريفها "لأنه لا يوجد تعريف جامع مانع للديمقراطية، وربما لم يوجد في يوم من الأيام ولن يوجد في المستقبل. فالديمقراطية مفهوم سياسي يؤثر في المجتمعات التي تجري ممارسة الديمقراطية فيها وتؤثر المجتمعات فيه. ومن هنا فإن المشروع يسعى إلى مقاربة المفهوم وليس إلى تعريف الديمقراطية"، على نحو ما يقول غليون.

واليوم، نتساءل: كيف يمكن للعراقيين أن يقيموا صرح الديمقراطية الدستورية التوافقية في العراق الجديد؟

قبل الإجابة على هذا السؤال المهم، أود أن أؤكد ابتداء أن العراقيين في الداخل والخارج- الذين قاسوا من الدكتاتورية والذل والاغتراب طيلة ثلاثة عقود متوالية، جديرون اليوم بالتمتع بالحرية وممارسة الديمقراطية على أوسع نطاق لصمودهم أمام هذه العاصفة الهوجاء المدمرة التي هبت على العراق في غفلة من الزمن، ولاسيما وأن جميع ألوان الطيف السياسي العراقي قد أكدوا على ضرورة إقامة دولة المؤسسات الدستورية الديمقراطية في البلاد، من خلال وضع الدستور الدائم للجمهورية العراقية الفيدرالية والتمسك بعروة الوحدة الوطنية، مع الاحتكام إلى محكمة الدستور كقيد دستوري على حرية التشريع وجهة الفصل في الخلاف، لأن الأسس الرئيسية للنظام الديمقراطي تقوم على مبادئ معترف بها دستورياً: الشعب مصدر السلطات، ولا سيادة لفرد أو مجموعة من الأفراد على الشعب، والمساواة السياسية والقانونية بين المواطنين دون تمييز، مع منح المواطن حق الاعلام وممارسته بحرية، مع خصخصة وسائل الاعلام وعدم وضع الرقابة المسبقة على العملية الإعلامية، ومبدأ الفصل بين السلطات مع سيطرة أحكام القانون وشمول القضاء كل ما تطاله أوجه الاختلاف والاعتراف بالتعددية وبتداول السلطة سلميا في انتخابات دورية حرة ونزيهة، شرط أن يتعلم الحاكمون كيفية الاعتذار للشعب عند ارتكاب الأخطاء.

وعندما يتم إرساء هذه المبادئ، وتقوم المؤسسات الدستورية في البلاد يجب توفير الآليات التي تضع هذه المبادئ موضع التنفيذ لإقامة مجتمع مزدهر في مشروع حضاري ينعم به الجميع، والذي لا يمكن أن يتحقق إلا إذا استطاع القابضون على السلطة إرخاء قبضتهم القوية والخانقة على الحكم لإشاعة مناخ صحي، وشروطه التي تتمثل في:

1. توفير السلام الاجتماعي لتهيئة المناخ لنشوء الطبقة الوسطى التي تعد الركيزة الاساسية للديمقراطية في بلادنا.
2. ممارسة الديمقراطية الشفافة والنقد المرن بين الحكام والمحكومين بعيداً عن الثورية الغوغائية والكيل بمكيالين، وجعل النسبية فضاء الديمقراطية التي يجب أن تمارس بمرونة ووفق متطلبات الواقع.
3. تحقيق التنمية الحضارية (البشرية) بالاعتماد على القدرة الذاتية وتراكم الخبرات والموارد المتوفرة.
4. لا يمكن تحقيق الديمقراطية إلا إذا توفرت ممارستها من خلال إيمان السياسيين وقادة المجتمع المدني بأهميتها، ليس كعلاج لكل المشاكل وإنما كأسلوب في الحياة وفي النظرة إلى الآخر.
5. وضع الانسان المناسب في الموقع المناسب بعيدا عن العلاقات الشخصية أو المناطقية أو الدينية أو السياسية.
6. وضع الإطار القانوني- الاجتماعي لقيام مؤسسات المجتمع المدني (النقابات والاتحادات والجمعيات والروابط والوقفيات) لممارسة مختلف الصيغ الديمقراطية التي تخلق التراكم الحضاري والتفاعل مع الآخر بروح المودة والتقدير والحوار المتميز لحل القضايا الشائكة والخلافية.
7. ترسيخ قواعد الشفافية من خلال النقد والمحاسبة والمساءلة في الشؤون العامة التي تهم المواطنين.
8. يشكل سقوط النظام، فرصة ثمينة للعراقيين لوضع قيم حضارية جديدة لعراق تحترم النفس والآخر، وتقليص العنف [illegible] والعلاقات والمعاملات التي تلتقي عليها الأكثرية ويتفق عليها المجتمع برعايته.

الميتاأيديولوجيا ـ خطاب المفارقة
قراءة في (نهاية التاريخ)

محمد عطوان

أدت التغيرات الكبرى في ميزان القوى الدولية التي حدثت في مطلع التسعينيات من القرن الماضي بدوافع موضوعية وتاريخية، وكذلك الانعطافة التي أحدثتها البيروسترويكا التي أطلقها ميخائيل غورباتشوف في الاتحاد السوفيتي السابق، دوراً كبيراً في ظهور أطروحات فكرية أصبحت مثار اهتمام التفكير الستراتيجي الغربي، نظراً لأهميتها القصوى في عالم ما بعد الحرب الباردة. ومن أهم تلك الأطروحات أطروحة (نهاية التاريخ) التي أطلقها المحلل الأمريكي، الياباني الأصل، فرانسيس فوكوياما، وفيها يرسم تصوره بأن النظام الرأسمالي بوجهه السياسي والاجتماعي والاقتصادي، هو الأكثر مناسبة لحياة البشرية، ولعله سيكون النظام الأمثل في المستقبل

لقد عرف الفكر السياسي الغربي، منذ بيكون وديكارت، اهتماماً واضحاً بضبط تواتر زمانه من خلال إعادة قراءة تاريخه على أساس الانفصال والاتصال لتجاوز أزماته. وقد درج على ذلك حتى بات هذا من الصناديق المعترف بها للغرب، فهي التي أسهمت في تأسيس مدركاته الجماعية وحفظته من السقوط في فخاخ الإطلاقية والأسطورية واللاعقلانية.

يؤكد فوكوياما على مفهوم (الوعي) بوصفه مقدمة لسبق القرار في العالم المادي، اعتقاداً منه بأن الأفكار هي قوة مستقلة تتعدى قوتين الواقع المادي الموضوعي، بل هي في تصوره المصدر الوحيد للقوة. ويستند كل حجج فوكوياما في ذلك إلى الظفر الذي حققته بعض الأفكار بمعزل عن حركة التاريخ، وهذا ما يجعل الواقع غالباً يعكس صوراً متموجة ومتداخلة الأجزاء.

وهذا التصور يصدق -بحسب زعم فوكوياما- على فكرة (الديمقراطية). فقد انقادت الولايات المتحدة، بإزاء تركة ما يقرب من نصف قرن من الحرب الباردة- على نحو ما يقول غراهام فولر- إلى وضع هدف الاستقرار فوق أي اعتبار في سياساتها تجاه العالم الثالث. وبعد أن شهد العالم، من خلال ما سمي بـ (النظام العالمي الجديد)- تبني (الديمقراطية) بوصفها النظام السياسي الذي ينبغي له أن يسود العالم. من هنا، عمل فوكوياما على إسقاط سائر البدائل التاريخية وأحل محلها نظاماً اقتصادياً اجتماعياً سياسياً ثقافياً يمكن أن يجيب على كل ما ينقاد من مشكلات. ولذا سيكون التاريخ -بتعبير فوكوياما- (مسطوراً)، أي متاحاً من داخل النظام وممنوعاً من خارجه. بعد هذا الشطر من قبيل الحتم والضرورة. فهو يعد انهيار الكتلة الاشتراكية وانتهاء الحرب الباردة تاريخياً وإعلان انتصار الديمقراطية والمشروع الليبرالي في نهاية التاريخ، وإن سيادة الغرب الديمقراطي الليبرالي أصبحت نهائية ولا مجال لتغيرات جذرية عميقة في التاريخ القادم للإنسان. فالتغيرات القائمة لن تعدو التفصيلات، أو فرصة الشعوب الأخرى للاستجابة والتمثل للنموذج النهائي، أي النموذج الغربي. غير أن هذا لا يعني توقف الأحداث المهمة في التاريخ، بل يعني أنه "لن يكون هناك أي تقدم أو تطور بعد ذلك فيما يتعلق بالمبادئ والعقائد والمؤسسات، وذلك بقدر ما تم فيه بلوغ الديمقراطية الليبرالية". بمعنى أن فكرة (نهاية التاريخ) لا تدل على نهاية الحرب الباردة حسب، بل تدل، كذلك، على نهاية التاريخ بوصفه تاريخاً، وتنبئ بالوصول إلى نقطة النهاية في خط التطور الأيديولوجي للبشرية. إن هذه الفكرة ليست جديدة، فقد أعلن هيغل عن نهاية التاريخ على أثر معركة ايينا في العام (1806)، كما توسم ماركس في الشيوعية أن تكون نهاية للتاريخ. وقد حاول كلاهما أن يقدم صياغة نظرية لنهاية التاريخ بالاعتماد على أحداث سياسية محددة، من قبيل انتصار مبادئ الثورة الفرنسية وتوسيع حق الانتخاب اللذين آمن وتأثر بهما هيغل، مثلما رأى ماركس أن الرأسمالية قد وصلت إلى حالة الانفجار بفعل تناقضاتها الداخلية، الأمر الذي سيؤدي إلى انبثاق مملكة الإنسان (الشيوعية). وقد أفاد فوكوياما من هذين الرأيين، فاتبع المنطق الجدلي الهيغلي لكنه ابتعد به عن الاستخدام الماركسي المتعلق نفسه. من هنا، كان استنتاج فوكوياما مؤسساً على أن معوقات التنمية في دول العالم الثالث كثيرة، وإن كثيراً من دوله لن تتمثل قيم الديمقراطية التي ينشدها الغرب. وعلى هذا الأساس، يؤكد فوكوياما رجحان حصول التقاطع أو الصدام بين الدول الرافضة من جهة وسلوك الديمقراطيات الصناعية من جهة ثانية، مما سيؤدي إلى شطر التاريخ، وسيجعل العالم الثالث نهباً لصراعات دينية وقومية وأيديولوجية ساخنة. يقول فوكوياما: "إن القوى الاقتصادية ساعدت على ترسيخ دعائم النزعة القومية من خلال إحلال الحواجز الطبقية، وخلقت كيانات مركزة متجانسة لغوياً في مسار تلك العملية. وهذه القوى الاقتصادية نفسها تساعد في الوقت الحاضر على تفكك وإحلال الحواجز القومية من خلال إنشاء سوق واحدة عالمية متكاملة". وقد مثلت (محرقة حرب الخليج الثانية)، في حينها، نموذجاً بليغاً على توجه الغرب نحو مثل هذا النمط من التدخلات، التي أنهت وحدة العالم الثالث، وأضعفت إرادة التحرر الوطني فيه، ودشنت عهد إملاء سلطة الاستعمار الجديد في صورته المستحدثة بزعامة الولايات المتحدة التي تهدف إلى اجتثاث جذور المقاومة المحتملة لمشروع هيمنتها العالمي.. تلك الجذور الكامنة في الهوية الدينية والقومية.

وإذا كان هيغل لم يتوصل إلى خلاصة نهائية تمكنه من بلوغ اللحظة المطلقة، فإن فوكوياما فعل ذلك حين عدّ الديمقراطية الليبرالية هي هذه اللحظة المطلقة أو نقطة النهاية. وهذا لا يعني أن الليبرالية الغربية لن تواجه تحديات أخرى بزوال التحديين الفاشي والشيوعي، بل ثمة احتمال لبروز تحديين آخرين، هما كما أسلفنا- التحدي القومي والتحدي الديني. وآية ذلك ظهور الصحوة الدينية، لا الإسلامية حسب بل المسيحية واليهودية أيضاً.

ولإعطاء تفسير منطقي لما قاله فوكوياما عن هذين التحديين، يمكن القول إن الشعوب تميل غالباً إلى الاعتقاد بفكرة (نهاية التاريخ) في حالتين: حالة الانتصار وحالة الانكسار. ففي الحالة الأولى، يكون التاريخ قد انتهى بوصوله إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه البشر من رقي وحضارة وتطور، وهذا المعتقد يسود في الفلسفات القومية على نحو عام. وفي الحالة الثانية، يكون العالم على وشك النهاية، وهو ما تعبر عنه الفلسفات الدينية غالباً. ولذلك، ترجح وجهة نظر فوكوياما كفة انتصار الأفكار التي تشتمل على الهيمنة الاستعمارية للحضارة، والتي تتجاوز الإمبراطوريات التقليدية وسقوطها، والتي تعتمد بالدرجة الأساسية على فكرة الاستثمار الاقتصادي، إذ يمثل العالم الاقتصادي أحد الحركات الرئيسية في التطور التاريخي. هذا التطور الذي سيؤدي إلى الرأسمالية بوصفها نتيجة نهائية، بدلاً من الاشتراكية. وهكذا ستتمثل نهاية التاريخ بالديمقراطية الليبرالية في السياسة وبالرأسمالية في الاقتصاد. على أننا ينبغي أن نلاحظ هنا، أن فوكوياما يرفض التصور الذري الذي نادى به كل من شبنغلر وكاسيرر وشفايتزر، وما [illegible] من مصادر القوة التقليدية، مهتماً، من جانبه، بالأفكار، أكثر من اهتمامه بالمؤشرات الاقتصادية ثانية.

فإن اتساع دائرة القطاع العام سيكون عقبة كؤوداً أمام (عولمة) الاقتصادات الحرة، وهذا هو الذي دفع تالبوت -وكيل وزارة الخارجية الأمريكية في عهد وارن كريستوفر- إلى عدم قبول تفاؤل فوكوياما بالانتصار، مع أنه قبل بفكرة وجود تهديد تتحدى قدرات الولايات المتحدة. وهذه الوضعية لا تعد سقوطاً للدولة أو الحضارة، ولكنها لا تعني أيضاً التفاؤل بأن نهاية التاريخ تعني بأن تصبح الولايات المتحدة زعيمة للعالم، إلا أن الغرب مع انبثاق عصور التنوير فالحداثة فالعولمة، قد أصبح قوة تنزع إلى امتلاك الأفق الكلي، وعلى الرغم من التاريخ المحدود للذات الغربية، [illegible]

فوكوياما

فرانسيس فوكوياما
نهاية التاريخ والإنسان الأخير

أوراق
صورة الصحّاف

حيدر سعيد

لا يزال اليوم الحرب مفتوحاً، ولا تزال صورها تعبث بأكوان الصمت القابعة فينا.

لا تزال الصور تشكل ما يبقى من الذاكرة: خطاب بوش الذي يعطي لصدام حسين مهلة يومين للتنحي عن السلطة، التظاهرات ضد الحرب في أوروبا، قصف بغداد، الأسير العراقي الذي يحتضن ابنه، الطائرات الأمريكية وهي تقلع للقصف، المؤتمرات الصحفية في قاعدة السيلية، الفتى علي مقطوع الذراعين، الأسرى الأمريكان الذين عرضوا على شاشة تلفزيون العراق، إنقاذ المجندة الأمريكية جيسيكا، العراقيون الذين يطاردون طيارين أمريكيين سقطت طائرتهما قرب نهر دجلة، اختراق القوات الأمريكية لبغداد، سقوط تمثال صدام حسين، إحراق مباني الدولة والسلب والنهب... صور وصور وصور.

هكذا باتت تتشكل الحرب... في صورتها التلفزيونية. ومع أنني أتحفظ على التأويل الجارح بأن هذه الحروب (.. العاصرة، ما بعد الحداثية)، التي سميت (حروب الصورة)، هي حروب في المشهد أكثر منها في الواقع، وأنها في جوهرها حروب مصنعة تلفزيونياً، إلا أن لا أحد يستطيع أن ينكر أن الوقائع الصورية لهذه الحروب هي جزء حيوي من وقائعها الحقيقية، وربما ارتبط تاريخها ومتعلقاتها بصورة تلفزيونية ما، فقد كان قدر هذه الحروب أن تتزامن مع تطور تكنولوجيا الاتصال ونشوء المجتمعات المشهدية، وبالتالي نشوء البث الفضائي والتغطية المباشرة للأحداث. وهكذا، كان جزء أساسي من وقائع هذه الحروب يقع في (الميديا)، إذا جاز لخيالنا أن يتصور ذلك.

وبين الصور اللاحقة للحرب، تقف الصورة الأكثر فرادة، صورة وزير الإعلام العراقي السابق (محمد سعيد الصحاف): الوجه الأسمر، الشعر الأسود الفاحم المصبوغ، النظارات الطبية، البدلة العسكرية الخاكية اللون والبيرية السوداء، القاموس الخاص والتصريحات والبيانات والمؤتمرات الصحفية... تلك الصورة التي أخذت المساحة الأوسع من صورة الحرب وجعلت من صاحبها (رجل الحرب الأول) و(نجمها الأول)، بثقته الأكيدة بالنصر، وبسالته أمام أعتى قوة في العالم، بكبريائه المطعون في الظهر، وانكساره التراجيدي بعد سقوط نظامه.

كان الصحاف، بهذا المشهد السالف، جزءاً من صورة الحرب... من مشهدها. كان بالأحرى مشهداً تلفزيونياً، صورة فقط. والصورة -أية صورة- ليست عرضاً سلبياً ينتهي أثره بنهايته، فهي تخلق فضاء انفعالياً تمارس عبره الاستجابات وردود الأفعال.

وقد عملت صورة الصحاف، بوصفه بطلاً تراجيدياً، على أن تجعل منه موضوعاً للتعاطف والمحبة، فأنشئ موقع الكتروني لمحبيه، وكتبت عنه برامج تلفزيونية كثيرة، وأصبح لعبة أطفال، وأصبح فيلماً، وأصبح مسرحية. كان الصحاف ظاهرة بالفعل، وكانت الحرب نفسها (حرب الصحاف)، على نحو ما وصفت أخيراً.

غير أن ظاهرة الصحاف هي ظاهرة انفعالية بالدرجة الأولى، بما أنها تشكلت في الانفعالات والاستجابات وردود الأفعال. وقد اكتسبت، بواسطة البث الفضائي، طابعاً عالمياً يتجاوز شخص الصحاف، إلا أنها لم تفهم إلا متجسدة في رجلها الحقيقي: (رجل الحرب الأول) و(نجمها الأول).

غير أن عالمية هذه الظاهرة لا تعني أنها اتخذت معنى واحداً.

شتان ما عند كل المتلقين، فقد كانت طريقة التعامل مع (ظاهرة الصحاف) تتحدد بحسب المكونات التاريخية والسياسية والنفسية لـ (جماعات التلقي).

لنلاحظ أن المتلقي الغربي كان يتعامل مع (الصحاف) بوصفه ظاهرة كاريكاتيرية، بالمعنى الدقيق. لأنه كان يمثل خط المفارقة بين صورتين: صورته وهو يخطب ويصرح من جهة، وصورة القوات الأمريكية وهي تتقدم من جهة مقابلة. وهذا المحتوى الكاريكاتيري الساخر (الصحاف) ينتمي إلى عصور أصبحت سحيقة بالنسبة للمتلقي الغربي. ولذلك، لم يكن (الصحاف) لديه (فقرة ترويحية) في سياق المتابع التراجيدي لمشهد الحرب فقط، بل إنه كان يؤدي وظيفة سايكولوجية أكثر أهمية، ولاسيما للمتلقي الأمريكي، وهي أن العدو الذي تقاتله أمريكا عدو كاريكاتيري، وأنه ينتمي إلى عصور سحيقة كذلك.

وقد نقل الساسة العراقيون الذين كانوا يشكلون (المعارضة العراقية) هذا المحتوى الكاريكاتيري، ولكنهم وضعوه في سياق هجائي للنظام العراقي بأكمله. ولم يخرج العراقيون أنفسهم -وهم أول المعنيين بالمحنة والتأجير بهم دائماً- عن حدود هذا الشكل من التلقي، إلا أن الصحاف لم يكن لديهم كاريكاتيراً حسب، بل إنه كان، أيضاً، آخر الأقنعة القبيحة للدكتاتورية.

غير أن الشأن لم يكن كذلك لدى المتلقي العربي. فقد لامست الذات العربية، المهزومة والمهانة، أن تكون حرب العراق حرب كرامة لها، وقد تجسدت هذه الرغبة في الصحاف / الظاهرة، الذي تكفل بإعادة الكرامة للذات العربية، وإن كانت كرامة في الهواء، وتكفل بأن يصنع للجماهير العربية خيال المقاومة، وإن كانت مقاومة في الكلام. فكان صانع الانتصارات والمقاومة للجماهير العربية وبطلاً قومياً، في وقت تحتاج فيه هذه الجماهير إلى انتصار ما، وإن كان من هواء وكلام وورق.

فئة قليلة من المثقفين العرب تعاملت مع (الصحاف) بوصفه كاريكاتيراً أو نقلت طبيعة المتلقي الغربي له لأنها وجدت فيه خلاصة مكثفة لسلوك المؤسسة الإعلامية العربية. وبالتالي، كان التأكيد على كاريكاتيرية الصحاف، عند هؤلاء، شكلاً من أشكال الانتقام من هذه المؤسسة، حيث أصبح الصحاف رمزاً لها.

إن ثمة أربعة أنماط من التعامل مع الصحاف / الظاهرة ومع الحرب التي سميت باسمه.

ولكن، وفي العملية الصامتة من (حرب الصحاف)، في البقعة الخفية من صوره وألعابه، في الجانب المسكوت عنه من صورة البطل القومي والتراجيدي معاً، في لحظة النسيان من مسرحية الصحاف، كان ينام عذاب العراقيين وضحاياهم وقلقهم وفرحهم بالخلاص من الدكتاتورية، التي حجبتها صورة الصحاف، بسالته وانكساره، ومثلما حجبتها صور النهب والسرقة والتدمير. لم يكن العراقيون شيئاً أثيراً للمتلقي التلفزيوني، إلا في ذلك المشهد المختزل (أقول: المشهد show)، الذي شاهده العالم في لحظة استراحة لينشط شعور الشفقة لديه. وخلف الصورة -خلف الصورة حتماً- كنا ننام على دمائنا وخرابنا، التي كانت حقيقة صارخة، لا صوراً فقط.

لا يزال اليوم الحرب مفتوحاً. وها نحن نكتب عن (الصحاف) بعد سبعة أشهر من سقوطه وسقوط نظامه.

والكتابة قد تكون ثأراً شخصياً للذات، ورغبة من رغباتها. فهل نجعل الكتابة عن (الصحاف) هجاء جديداً للنظام السابق، وقد أصبح في مجال التاريخ واستنفدنا فورة هجائه، أم استهلاكاً داخلياً، وقد خرج من حقل الاستهلاك، أم استعادة لكاريكاتير تاريخي، وقد انتهى معنى المفارقة فيه؟

لتكن الكتابة (تطهيراً catharsis)، يحرر ذاكرتنا المأزومة من رواسب الدكتاتورية، ومن هذا النمط من الإعلام، المسيس، والخانع، والكاذب، والذليل، والشائن، الذي يستخف بمشاعر الجماهير، ويمنحهم انتصارات من ورق ومقاومة من خيال... نكتب عن (الصحاف) لنتحرر من حقبة بأكملها من حقب الذات العربية والمجتمع العربي والسياسة العربية والثقافة العربية.

ها هي رابع مقالة تقدمها (المدى) عن (الصحاف). ها نحن نحاول أن نتحرر.